صديقي العزيز سعادة السفير الشارخ، أتقدم لك ولوزير الخارجية الشيخ الدكتور محمد الصباح بالشكر لتنظيم هذه الندوة الهامة تحت رعاية وزارة الخارجية، وأشكر لك الإطراء في التقدمة. سعادة السفراء وربا وهوفاري، الضيوف الأعزاء: إنه لفخر لي أن أشارككم في إحياء الذكرى العشرين لسقوط حائط برلين، الحدث الذي كان له الأثر الكبير في تغيير معالم السياسات والعلاقات التي تربط بين شعوبنا العظيمة.

أنا ولدت في شهر أكتوبر من عام 1956، شهر الثورة الهنغارية، وفي الحقيقة فإن العديد منا اليوم عاصر الواقع السياسي لفترة الستارة الحديدية أو ما يسمى بالحرب الباردة. في حين كان للقرارات التي تم اتخاذها في مؤتمر بوتسدام عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية، وما تلاها من نشاطات من قبل الاتحاد السوفييتي، الأثر الكبير في تحديد المعسكر الشرقي وتقرير مصير ملايين من الشعوب في أوروبا الوسطى والشرقية؛ إلا أن أيدولوجية الحرب الباردة بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي ساهمت في وضع الواقع السياسي حول العالم وتحريكه وتقسيمه.

الحرب الباردة جعلت فهمنا لعالم ثنائي الأقطاب أكثر سهولة نوعاً ما، حيث أن الشعوب كانت تقسم نظرياً إلى معسكرين غير متجانسين هما الرأسمالية أو الاشتراكية، أو بعبارة أخرى السوق الحرة مقارنة بالاقتصاد المنظم، حرية التعبير عن الرأي – من وجهة نظر الغرب – وحرية الاعتقاد الديني، مقارنة بالحملات الحكومية والتقييد لما كان يعتقد بأنه ممارسات دينية مسببة للشقاق. جيل كامل من الأمريكيين تلقن دون إدراك رسائل عبر الرسوم المتحركة التي كانت تعرض شخصيات تتحدث بلكنة روسية ثقيلة اسمها بوريس بادونوف وناتاشا فاتالي – التي كانت مكائدهما تفشل في النهاية – والتي كانت تدبر دائماً من القائد الخبيث والشجاع والمجهول الهوية. حينئذ كان إلى حد ما يمكن التنبؤ بالسياسة

الخارجية للدول في نطاق معسكر الحرب الباردة، وبالتالي فكان ينظر إلى الأفعال وردود الأفعال من منظور الحرب الباردة. وشهدت تلك العقود الأربعة أيضاً سباق تسلح الذي كاد أن يودي بنا إلى مخاطر الوقوع في حرب نووية.

لقد قطعنا أشواطاً كبيرة في العقدين المنصرمين منذ الأحداث التي أدت إلى سقوط الحائط وإزالة السياج الذي كان يفصل بين العائلات والمجتمعات منذ عام 1940 والتي قادتها مجموعات من الشجعان الهنغاريين والنمساويين؛ والمظاهرات الدؤوبة للعمال البولنديين والتي أدت في النهاية إلى حركة تضامن كانت نتيجتها نجاحهم الكاسح في الانتخابات البرلمانية، معززة بالدعم السياسي والأخلاقي من الكنيسة الكاثولوكية؛ تجمهر أهالي برلين الشرقية عند نقاط التفتيش على طول حائط برلين للعبور منها إلى القسم الغربي؛ إسقاط الحكام الاستبداديين والديكتاتوريين في بلغاريا ورومانيا؛ الثورة المخملية التي قادها الشعب التشيكوسلوفاكي، والتعاضد الألباني الناجح من أجل حق الحصول على جوازات سفر لمغادرة حدود بلادهم.

وبالفعل، فعندما وقف الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريغان أمام بوابة براندينبرغ في عام 1987 وقال كلماته الشهيرة: "أيها السيد غورباتشوف: عليك باسقاط هذا الحائط" فقد كانت كلماته تعبر عن اصوات وآمال الملايين من شعوب أوروبا الوسطى الذين كانوا بشكل واضح أكثر تعددية من الخريطة السياسية لبلادهم. بالإضافة إلى هذا الرمز الهام في القيادة، لابد من الإعتراف بأن هذا الأمر لم يكن ليحدث لولا الجهود المنظمة والجبارة للمستشارالألماني هيلموت كول، والشجاعة والقدرة على تغيير القوانيين والسياسات المتبعة عند الرئيس السوفييتي السابق غورباتشوف، الذي كان يسعى إلى إيجاد مصالحة بين الشعب السوفييتي والغرب من خلال: "خطوات صغيرة وتنازلات ضئيلة،" على حد قوله.

نحن اليوم نعيش في واقع سياسي جديد أصبح ممكناً بعد سقوط حائط برلين، والتفكك السلمي للاتحاد السوفييتي، والثورات التي قامت في المعسكر السوفييتي. هذه الأحداث أدت إلى تحقيق فرص لم نكن نحلم بها قبل عشرين عاماً. سعادة السفير الشارخ وغيره من الخطباء هنا اليوم قاموا بالتنويه إلى صلة الربط بين سقوط حائط برلين واحتلال صدام حسين للكويت في أغسطس 1990. وزير الخارجية الأمريكية السابق جيمس بيكر قال مؤخراً: إن اللحظة التي كانت ترمز لنهاية الحرب الباردة بالنسبة له كانت في 3 أغسطس 1990 عندما وقف مع نظيره السوفييتي وزير الخارجية إدوارد شيفرنادزه في صالة مطار موسكو للإعلان معاً عن استنكارهم لغزو صدام للكويت. إن العراق تحت حكم صدام كانت دولة محسوبة من أتباع الاتحاد السوفييتي. حينئذ صرّح وزير الخارجية بيكر "أن الولايات المتحدة الأميركية والإتحاد السوفييتي هما حليفان في حرب للمرة الأولى عقب نهاية الحرب العالمية الثانية." ومما لا شك فيه أن سقوط حائط برلين شكل بداية نهاية عداوتنا مع الاتحاد السوفييتي كما شكل بداية صداقتنا مع روسيا.

خلال شهر يونيو الفائت، أعلن الرئيس أوباما والرئيس مدفيديف عن سلسلة تطورات مهمة طرأت على علاقاتنا الثنائية كشعورنا المشترك بالقلق على الأوضاع في أفغانستان التي تشكل تحديا تفهمه روسيا بشكل جيد. فقد سمحت روسيا للولايات المتحدة الأميركية بأن تنقل عدتها العسكرية عبر الأراضي الروسية، الأمر الذي يكسبنا وقتا ثمينا ويوفر علينا بعض الموارد في دعم القوات الأميركية ودعم جهودنا في تقديم العون للحكومة الأفغانية بهدف إحلال الأمن فيها. لقد وقعنا على مستوى العلاقات العسكرية بين بلدينا اتفاقية إطار عمل إستراتيجية تخولنا استكمال تمارين التبادل والتدريب المشترك التي علّقت العام الفائت على أمل وضع خطط للمزيد من هذه التدريبات العام المقبل.

هذا ووافق كل من الرئيس اوباما والرئيس ميدفيديف على كبح جماح تهديد الانتشار النووي ووضع الأهداف العينية بهدف التقليل من المخزون النووي لدى دولتينا، الأمر الذي يشمل كذلك المفاوضات القائمة بين الخبراء التقنيين لوضع اتفاقية قانونية جديدة وملزمة تحل محل معاهدة التقليل من السلاح الاستراتيجية (ستارت) التي تنتهي فعاليتها في 5 ديسمبر من السنة الحالية. إن هذا التعاون ليس إلا دلالة على القيادة من قبل البلدين الذين يملكان أكبر قوة نووية في العالم.

إلى ذلك، أعلن كل من الرئيس اوباما والرئيس ميدفيديف عن تشكيل لجنة رئاسية ثنائية أميركية روسية تعنى بالنظر بعدد من القضايا التي تؤثر على أمن وازدهار شعبينا. هذا وحصل لقاء الشهر الفائت في روسيا جمع بين وزيرة الخارجية الأميركية هيلاري كلينتون ونظيرها الروسي للبدء بتنسيق عمل اللجنة التي تقوم على مجموعات تعمل كل واحدة منها على قضية مختلفة من الزراعة إلى الطاقة إلى التعاون الفضائي والتبادل الثقافي.

وخلال زيارتها إلى روسيا في شهر أكتوبر الماضي، سلطت وزيرة الخارجية الأميركية هيلاري كلينتون الضوء على التطورات التجارية المشتركة مع روسيا ومنها على سبيل المثال مركز تصميم طائرة البوينغ في موسكو الذي يشارك فيه 1400 خبير روسي مع خبراء أميركيين موجودين في ويشيتا وكانساس وسياتل وواشنطن. وإلى جانب التعاون على إنتاج طائرة بوينغ دريملاينر Boeing's Dreamlienr، يعمل المهندسون الروسيون على إنتاج مركب التيتانيوم الذي سيحل في المستقبل محل هيكل الطائرة الألمونيوم. وهنا باستطاعتنا رؤية احتمال توسيع بيكر المغامرات الأميركية الروسية المماثلة.

إن "إعادة انطلاقة" علاقتنا مع روسيا لا تمحي التحديات، وكما قالت الوزيرة كلينتون خلال زيارتها إن عدم التوافق سيستمر في ما بيننا إلا أننا نأمل أن نشركه في قاعدة أوسع من التعاون. نحن لا نوافق على جورجيا كما أن روسيا لا تعترف بأوسيتيا الجنوبية وأبخازيا. وإننا مستمرون بقلقنا على المجتمع الأهلي وسيادة القانون ودور المنظمات غير الحكومية في روسيا. لكن سنستمر بالعمل معاً في مجالات أخرى وإن جميع الأبواب مفتوحة.

أما في ما يتعلّق بالعلاقة التي تربطنا بدول وسط وشرق أوروبا التي كانت تابعة في ما مضى إلى الاتحاد السوفييتي فهي بأحسن أحوالها. وعلى الرغم من سنوات الركود الاقتصادي، والاضطهاد السياسي والافتقار إلى الحد الأدنى من مبادئ حقوق الإنسان، فقد اتخذت دول وسط وشرق أوروبا خطوات جبارة لتطوير اقتصاد الأسواق الحرة وتعزيز سيادة القانون وإنشاء المؤسسات الديمقراطية، هذا بالإضافة إلى أنها تعتبر نفسها حليفا وشريكا وقائدا موثوقا في الاتحاد الأوروبي. إنه لإنجاز ملحوظ حصل خلال 20 عاما فقط لا غير. وفي هذه الأثناء، أصبحت الولايات المتحدة الأميركية أكثر التزاما بحلف يجمعها مع أوروبا المتجانسة ولن نسمح لأي حدث بأن يفرقنا مجددا البتة.

وتبقى الولايات المتحدة الأميركية ملتزمة بحماية حلفائها في وسط وشرق أوروبا. وبهدف التأقلم مع العالم المتغير غيّرنا طريقة تعاملنا مع القاعدة الدفاعية. لقد قمنا بتحديث توجهنا نحو الدفاع الصاروخي لأجل التكيف مع عالمٍ متغيرٍ. في القرن العشرين، شكل الاتحاد السوفيتي التهديد الأعظم لهذه المنطقة، و لكن الآن الخطر ينبع من صواريخ قصيرة و متوسطة المدى التي حصلت عليها بعض الدول الغير مستقرة. إن مرونة هذا التوجه الجديد يسمح لنا إن نتكيف مع تلك التهديدات المتغيرة و نحن نؤمن

بأن هذا البرنامج سيكون قوة ردع ضد أولئك اللذين يعتزمون مهاجمة قواتنا في الخارج أو حلفاءنا في القارة الأوروبية.

بعض الدول التي كانت ضمن كتلة الدول الشرقية للاتحاد السوفيتي شاركت في العمليات القتالية جنبًا إلى جنب مع الولايات المتحدة في العراق، و بعضها ساهمت بخبراتها لتدريب قوات محلية لأجل مجابهة مجرمين و متطرفين. إن مساهمات أعضاء وحلفاء حلف الشمال الأطلسي لا تقدر بثمن، مثلهم مثل الولايات المتحدة، قدموا الدم والغالي والنفيس في حربهم من أجل حقوق و مبادئ مشتركة – كالديمقراطية، والحرية و الأمن – مبادئ كانوا قد حاربوا من أجلها في الماضي، و نحن نقدر هذه التضحيات.

في كثير من النواحي، رمز سقوط جدار برلين كان خطوة جوهرية باتجاه بناء السلام و الاستقرار في القارة الأوروبية بعد استمرار حالة من الممكن وصفها بحرب أهلية بدأت في الحرب العالمية الأولى. بعبارة أخرى، أحداث عام 1989 كانت بمثابة الحل لما بدأ في شهر أغسطس من عام 1914. و في كثير من الإشكال يتطابق هذا الحدث مع النقاط الأربعة عشر التي كانت جزءاً لا يتجزأ من النهج السياسي الخاص بالرئيس الأمريكي السابق ويلسون و مثل انتصاراً نهائياً، إلى حداً ما، لهذا النهج على حساب ذلك النهج الآخر الذي تصور إن السياسة الخارجية لبلدان العالم كانت تتمحور حول المصالح الذاتية و لا شي آخر. تجدر الإشارة بوجه خاص إلى انجازات المؤسسات الأوروبية – الأطلسية، كحلف شمال الأطلسي و الاتحاد الأوروبي.

بالطبع، هناك نزاعات مستمدة من الحرب العالمية الأولى مثل مسألة الخلافة اليوغوسلافية، و عدد من المسائل المتعلقة بالشرق الأوسط و على رأسها القضية الفلسطينية – الإسرائيلية، التي ما تزال

قائمة. علينا إن ندرك بأن غياب وجود ظل الحرب الباردة يعني إن الطريقة الوحيدة للتصدى للتحديات التي تواجهنا – سواء كانت في الصومال، العراق أو أفغانستان، هي التحالف مع الشركاء، و إن السياسات الاحادية و التي استهدفت احتواء البلدان المعادية في القرن العشرين لا أساس لها في عصرنا الحديث. معاً سوف نتمكن ، بدون قيود الماضي، من البحث عن توجهات جديدة لمواجهة هذه التحديات.

أنا أذكر عندما كنت جالسة في مقهى بتونس عام 1989 بينما كنت طالبة في المعهد اللغات الأجنبية التابع لوزارة الخارجية الأمريكية. أنا و زملائي من وزارة الخارجية كنا نستضيف شخصاً رفيع المستوى في الحكومة الأمريكية عمل كوزير مستشار بالقنصلية الأمريكية في بون. حينها سألناه عما إذا كان يعتقد أن جدار برلين سوف يسقط، أجاب بالقول "لا، على الإطلاق". فهو لم يستطع إن يتصور سقوط جدار برلين معتمداً في قراره على خبرته الشخصية، ولكن بعد أسبوع من تلك اللحظة سقط حائط برلين.

وعلى صعيد مشابه، يستحيل على بعض الأشخاص رؤية السلام الشامل وهو يحل على الشرق الأوسط بيد أنني أنظر على نموذج حائط وبرلين وأرتكز على مخيلة الكائن البشري وإصراره وتفاؤله كما أعتمد على الجيل الجديد من الدبلوماسيين لوضع تصور وتنفيذ ما لا يمكننا رؤيته اليوم. وفي هذه الأثناء، يبقى واجبنا الاستمرار بوضع أسس عمل هذه الأهداف الواسعة والمذهلة التي تحدّث عنها غورباتشيف وهي السعي وراء المصالحة بخطوات صغيرة وتنازلات ضئيلة.

# # #